

"قراءة في المنهج الحدائي عند عبد الله شريط"

د. حمادي النوي

جامعة طاهري محمد - بشار

noui.hammadi@yahoo.fr

الملخص:

لقد عرفت المجتمعات العربية منذ القرن التاسع عشر ثورات فكرية وفلسفية هامة، والتي كانت عاملا حاسما في دفعها نحو التحضر وإخراجها من التخلف الذي أربك نهضتها لمواكبة المشروع الحدائي التنويري، حينها انفتح العقل العربي على عالم يشهد ثورة فكرية وعلمية متقدمة، فالحدائنة والتنوير كمشروع حضاري ينطوي على فلسفة جديدة، لذا حمل المفكر الجزائري عبد الله شريط مشروعا حدائيا وموقفا من الحدائنة انطلاقا من ثقافته الوطنية الجزائرية المتشعبة بروح الإسلام والتسامح الحضاري وقراءة هذه الحدائنة قراءة نقدية، لذا كان تحليل المفكر عبد الله شريط لمسألة الإنسان وتنمية العقل الإنساني وفق منهج علمي، فالجزائر لم تستطع التغلب على التركة والإرث الاستعماري إلا بعد إحداث هذه الحركة الفكرية والفلسفية الشاملة التي تجلت في النهضة والتقدم الاجتماعي، فلا يمكن أن تتحقق إلا وفق إيديولوجيا تنموية هادفة، لأن فقدان قواعد الانضباط الإيديولوجي يعرقل العمل ويجعله خاضعا للأمزجة والأهواء.

الكلمات المفتاحية: الحدائنة، المشروع الحدائي، الإنسان، المجتمع الجزائري.

Abstract:

Since the 19th century, Arab societies have known important intellectual and philosophical revolutions, which have been a decisive factor in pushing them towards urbanization and driving them out of backwardness, which had confused their rise to keep pace with the modernist enlightenment project. The Arab mind has opened up to a world of intellectual and scientific revolution. A new philosophy, so the Algerian thinker Abdellah Cherit a modern project and a stop of modernity from his Algerian national culture imbued with the spirit of Islam and cultural tolerance and read this modern critical reading, so the analysis of the intellectual Abdullah Barr of the question of human and development of the Algeria can not overcome the legacy and the colonial legacy until after the creation of this comprehensive intellectual and philosophical movement that has manifested itself in

the renaissance and social progress. It can not be achieved except in accordance with a meaningful development ideology, because the loss of ideological discipline hinders work and makes it subject to fusions and animosity.

Keywords: modernity, modernist project, human, Algerian society

مقدمة :

إن موضوع الحداثة والمعاصرة يشكل مرحلة تطويرية لتخليص الإنسان من رواسب التخلف والتأخر الحضاري، الذي كان بمثابة العائق أمام تحضر الشعوب وانفتاحها على غيرها، ولكن مع مطلع القرن العشرين يكون الإنسان قد قطع شوطاً كبيراً في خوض غمار الحداثة، ومن المعروف أن تبلور فكرة النهضة العربية الحديثة في أهدافها الوطنية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، قد عرفت هي الأخرى تطوراً ملحوظاً على مستويات عدة التي كان لها التأثير المباشر على إحداث هذه النقلة الحضارية.

هذا المشروع الحدائي الذي ظل يراود المجتمعات العربية، حمل شعار المعاصرة والتنوير من جيل لآخر، والذي نعيشه اليوم وفق رؤية حدائية متجذرة في ثقافتنا العربية والوطنية بالخصوص ونابعة من أصالتنا وهويتنا الثقافية، لقد تحققت في العالم بأجمعه خطوات عملاقة في تطور المجتمعات وتأسيس فلسفة قادرة على توجيه الفرد داخل الجماعة، فحضور الفكر الفلسفي اليوم في المشروع الحدائي وتحدياته يفرض عليه أن يكون على وعي حقيقي بالمسؤولية الحضارية الإنسانية.

لذا حاولنا أن نبرز طبيعة وخصوصيات هذا المنهج الحدائي عند المفكر عبد الله شريط، والتطرق لجملة من الإشكاليات الحدائية الجوهرية التي شكلت الأسس والمفاهيم الفلسفية الحدائية عند شريط وكذا الآليات المنهجية والموضوعية التي تحقق ذلك.

لكن عندما نتناول هذه الإشكالية في مجتمعاتنا العربية الناهضة بالبحث والدراسة، فإن المفكر الجزائري عبد الله شريط (1921/2010م) عرف عنه أنه صاحب فكر حدائي تنويري في الجزائر والثقافة المتنوعة من حيث الموضوع والمنهج، الفيلسوف، المؤرخ الذي كرّس حياته لخدمة الثورة الجزائرية التي تتصف بظاهرة القرن العشرين، إضافة إلى عمله الأكاديمي وبحثه في مختلف المجالات المعرفية، وسعة اطلاعه على التراث المنقول والمعقول وما استجد في أدبيات الفكر الحديث والمعاصر، فهل استطاع المفكر الجزائري عبد الله شريط

تأسيس منهج حدائحي؟ أم أن الحديث عنه مجرد تنظير لم يتحقق بعد؟ ألا يمكن اعتبار شريط واحداً من ساهم في الفكر الحدائحي العربي الإسلامي تطويراً من جهة الموضوع، وتنظيراً من جهة المنهج؟

لا شك أن أي علم لا يعرف بموضوعه فقط ولكن بمنهجه أيضاً، لذا ارتأينا إتباع المنهج التحليلي المبني أساساً على تحليل النصوص الفكرية والفلسفية، فكيف يتصور شريط المشروع الحدائحي، انطلاقاً من ثقافته الوطنية الجزائرية المتشعبة بروح الإسلام والتسامح الحضاري، عندما أرسى قواعد المنهج الحدائحي "حل العلم محل اللاهوت سيداً تخدمه الفلسفة وتتبعه، فأصبحت شارحة للعلم بعد أن كانت مؤيدة للدين، وبات "المعمل" ومنهجه ونتائجه ميدان الفلسفة كما هو ميدان العلوم: العلوم تجري التجارب وتنتج النتائج، والفلسفة وراءها تحلل وتشرح وتستخرج المضمون وما يقتضيه بالنسبة إلى الحياة الإنسانية" ¹.

1/ الحدائحية وإشكالية عقلنة الماضي الحضاري

فالحدائحية كثورة على الماضي وإعادة بناء له والتقرب أكثر من متطلبات العصر، فهي وريثة النهضة وحفيدة التنوير كمشروع حضاري ينطوي على فلسفة جديدة، تتطلب التخلص من بقايا وإرهاصات الماضي البعيد التي سيطرت على العقول واحتوت الأفكار لمراحل متعاقبة، ومحاولة قطع الصلة مع الرواسب والمناهج السالفة، وإذا ما حاولنا تتبع هذه الحدائحية الجذرية التي حدثت في تاريخ المجتمعات البشرية، وكيف أثرت على حضارة الإنسان ودفعه إلى تحرير عقله من الأوثان والأوهام الخيالية، فقد انطلقت شرارة الحدائحية والتنوير ما إن أعلن المجتمع البشري ضرورة التحرر والتخلص من أنماط التفكير القديم، فقد عبّر الفيلسوف الألماني إيمانويل كانط (1724/1804م) في تعريفه للتنوير ففي جواب له عن سؤال ما هي الأنوار؟ "إن التنوير هو خروج الإنسان من قصوره الذي هو نفسه مسؤول عنه، قصور يعني عجزه عن استعمال عقله دون إشراف الغير، قصور هو نفسه مسؤول عنه لأن سببه يكمن ليس في عيب العقل، بل في الافتقار إلى القرار والشجاعة في استعماله دون إشراف الغير. تجرأ على استعمال عقلك أنت: "ذلك هو شعار الأنوار" ².

ومنه حاول الإنسان منذ البداية الاستفادة من إمكانياته واستعداداته الذهنية، وفي اعتقاد الفيلسوف الألماني يورغان هابرماس (1929م/...) أن عصر الحدائحية هو العصر الذي يختل

فيه التوازن بين الماضي والمستقبل، فهو العصر الذي يحيا بدلالة المستقبل، وينفتح على الجديد الآتي وبالتالي لم يعد يستمد قيمته ومعياريته من عصور ماضية بل من ذاته، "فالحداثة، في نظرنا، لا تعني رفض التراث ولا القطيعة مع الماضي بقدر ما تعني الارتفاع بطريقة التعامل مع التراث إلى مستوى ما نسميه "بالمعاصرة"، أعني مواكبة التقدم على الصعيد العالمي"³.

ومنه غدت فكرة الحداثة في صورتها الأكثر طموحا هي التأكيد بأن الإنسان هو ما يفعل وأصبح أكثر فاعلية بفضل المواهب المعنوية و الممكّنات المادية، لكن في المقابل يجب إنصافه ومعالجته وفق ما يليق بطبيعته الإنسانية (لأن الإنسان أشكل عليه الإنسان).

1.1 / الحداثة وإشكالية تجديد الفكر الإنساني

فالحداثة حملت معها مفاهيم جديدة تتعلق مثلا بمشكلة الحرية والإيدولوجيا والتنمية وحقوق الإنسان والديمقراطية، "في هذا الإطار يتحدد، اليوم، في المجتمع العربي، كما يبدو لي، دور المبدع فكرا وفنا، أي دور الشخص الذي هو وحده المهيا، القادر على أن يطرح الأسئلة الأساسية. معناها الحصري، (السائد)، تبدو، في هذا المستوى، سؤالا تاليا، تتحدد أهميته في ضوء تلك الأسئلة، وفي ضوء تلك الأجوبة عنها"⁴.

فهذا الانهيار والتردي في القيم والمعنويات شكّل بدوره خطوة نحو بلورة هذا المشروع الحدائي عند بعض المفكرين العرب المعاصرين، وكذا انتقاء الماضي من العوائق المعرفية والمنهجية التي تقف أمام تحديات الحاضر، فهويتنا تشكل المنطلق الرئيسي أو المرجعية الفكرية التي تعتبر خطوة نحو المستقبل في إحداث هذا التغيير. "من هنا سيبدأ مشروع حسن حنفي النهضوي من خطوة أو لحظة إعادة كتابة التراث كله حتى يستطيع إبراز التراث العقلاني المعارض الذي عمل التيار المحافظ والدولة المستبدة على طمسه وإقصائه وهذا التراث وجده في عقلانية المعتزلة ودعوتهم للحرية والمسؤولية والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"⁵.

فهذا العصر منفتح الأطراف يعمل على إزالة كل الحواجز والعراقيل بين الدول والمجتمعات، ويعمل على التواصل والتعاون الاقتصادي بل الفكري أيضا، فهي دعوة إلى تبني ثقافة العولة والسلم العالمي، وضرورة اختراع بدائل حضارية لتقوية الروابط الإنسانية لا أن تستنزف خيرات الأمم وثرواتها، بفعل القوة الاقتصادية التي تملكها، فإن لم تستيقظ

هذه الشعوب وتعي حاضرها فقد تصطدم حتما بأزمات واختلالات في مشروعها التنموي الحضاري، وعندها لا تستطيع مواجهة تيار العولة المفروض بكل مظاهره الاقتصادية والثقافية، الذي يمثل استعماراً جديداً باستخدام التكنولوجيا لقهر الضعيف وتجويعه، أي إذلاله وإبعاده عن معادلة التنمية والتحضر.

وإذا كان دعاة التحديث والتجديد اليوم يناورون على مسألة الحداثة بشتى أنواعها الفكرية والتقنية التطبيقية، فإن المستقرئ لمثل هذه الأفكار يتطلب منه الحذر وعدم التسرع في أخذ القشور والتخلي عن الجوهر، ومن منظور فلسفي يجب التسليح بمنطق النقد والتحليل والالتزام بالموضوعية، أي رفض التصديق والتقليد الذي نعانيه اليوم وقد خيم على مجمل أفكارنا وتطلعاتنا المستقبلية الذي لا يكون على حساب هويتنا ومقوماتنا الوطنية، "إن التاريخ واللغة والدين من المقومات الأساسية في رسم نسيج أمة متطورة لا متقاعسة ومتخاذلة تعيش الأمرين، التخلف والجوع والاستبداد الحضاري الذي تمارسه القوى الفاعلة، فينبغي علينا التمسك بإسلامنا مع تحكيم العقل في فهم الواقع، وتفعيل المفاهيم اللغوية في ترجمة هذا التحدي من النظر إلى التطبيق"⁶.

2/ عبد الله شريط و تبيين المفاهيم في فلسفته الحداثية تجاه الإنسان

لقد طرحت مشكلة تحليل وضبط المفاهيم التي ظلت تشكّل صميم وجوهر التفكير الفلسفي البناء تجاه النهضة بالمجتمع والكائن الإنساني داخل معادلة التحضر، وقد كان الفيلسوف اليوناني سقراط (399/470 ق.م) من الفلاسفة الذين حاولوا الاهتمام بعقلنة وضبط المفاهيم، حتى لا يحدث التلاعب بها واستخدامها لأغراض غير فلسفية، وقد تصدى للفلاسفة السوفسطائيين الذين اشتهروا بالجدل وفن الخطابة، والدعوة إلى قيم الخير والحق والعدالة والفضيلة، لما بدأت الفلسفة عند السوفسطائيين تتجه نحو فهم الإنسان والتعرف على حقيقته وتبعية المعرفة للإنسان ونسبيتها، "وعبر بروتاغوراس (410 / 480 ق.م) عن معالم تلك الروح الجديدة في الفلسفة بعبارة المشهورة الإنسان هو مقياس كل شيء"⁷. وإن كان سقراط هو الآخر اتجه بالفكر الفلسفي أيضاً نحو معرفة حقيقة الإنسان، والذي عبر بهذه الحكمة المشهورة (أيها الإنسان اعرف نفسك بنفسك).

وسقراط هو أول من آمن بوجود حقيقة ثابتة ومثل مستقلة عن الحقيقة المحسوسة ومعرفة صحيحة لا تكون بدون فضيلة، حيث "كان يعلن أنه لا يعرف شيئاً، وليس حكيماً ولكنه

فيلسوف محب للحكمة فكثيرا ما قال: أنا أعرف شيئا واحدا وهو أنني لا أعرف شيئا⁸. وإن كان أفلاطون (427 / 347 ق.م) قد حاول تبيان فلسفة أستاذه سقراط، ويظهر ذلك من خلال محاوراته المشهورة، ونظرية المثل التي تقوم على التمييز بين عالم مثالي أبدي وعالم مادي محسوس متغير، ثم جاء أرسطو (384/322 ق.م) الذي أسس علم المنطق، وعُرف بالمعلم الأول، وقد اهتم بتحديد المفاهيم والتعريف المنطقي الصحيح، ساعيا وضع اللبنة الأولى في تأسيس بنية منطقية للفكر البشري وتنظيمه، وتهذيب العقول بممارسة المنطق واكتساب معارف يقينية، لأن المنطق الأرسطي يبحث في الشروط الصورية للتفكير الصحيح، "وقد حدد أرسطو هذه الكليات في كتاب التحليلات الأولى (النوع، الجنس، الفصل النوعي، الخاصة، العرض العام)"⁹، معنى ذلك حسب تصورنا أن مسألة المفاهيم كانت واردة في الفلسفة الأرسطية، لأن دراستنا للمنطق الصوري تلخص لنا الطابع الفكري الذي يحدد المفهوم الفلسفي.

وإذا كان عصر النهضة الأوروبية وما أنتجه من نظريات واكتشافات علمية وتجاوز الفكر الكنسي (المدرسي) في القرون الوسطى الذي عارض قيام فكر فلسفي وعلمي موضوعي، فإن عصر الحداثة قد تخلص من وهم الانغلاق والتعصب الفكري الإيديولوجي المفروض على العقل التنويري، لذا جاءت فلسفة ديكارت (1595/1650م)، التي لاح نورها على أوروبا كلها فالحكمة هي الخير الأعظم، أما التجديد الحقيقي الذي استحدثه ديكارت في الفلسفة، فلا يكمن في تعريفها أو موضوعها أو النظرة الكلية الشاملة إليها، وإنما في تحليل المشكلات الفلسفية الكبرى وإعادة بنائها وفق منطق حدائي، فقد شبه الفلسفة بمثابة الشجرة التي تبدأ بالميتافيزيقا وتنتهي بالطب والأخلاق، وهي ومضة فلسفية أسست لفلسفة حداثة إنسانية.

وإذا كان (شريط) يعدُّ من المفكرين الجزائريين الذين تأثروا بالفلسفات السابقة، فقد أثار مسألة ضبط المفاهيم وتحليلها وفق منهج علمي موضوعي ومنفتح على استيعاب الآخر واستنارة المستقبل وعدم التمييز بين ما هو نظري (فكري) وما هو عملي (تطبيقي)، وقد كان كتابه المتميز "معركة المفاهيم" ثمرة إنتاجه الفلسفي، الذي يُعتبر نموذجا فكريا معبرا عن معركة المفاهيم في الجزائر، والتي بلغت ذروتها حين خرج الشعب منتصرا من معركة السلاح إلى معركة البناء والتعمير، لأن معركة البناء أشد وطأ من معركة السلاح حيث يقول: "إن معركة

المفاهيم أشد خطرا من معركة تحرير الوطن من المستعمر" ¹⁰ ، فسوف ينتصر في معركة أخرى ويخرج من دائرة التخلف والإقصاء والانبهار بالحضارة الأوربية ، لذلك يقول المفكر المصري (محمود قاسم) الذي كان أستاذا زائرا لجامعة الجزائر في مقدمة هذا الكتاب : " وإن كان الأستاذ عبد الله شريط مفكرا كاتباً معروفا في المغرب العربي وفي المشرق العربي أيضا" ¹¹.

وهذا ما يؤكد لنا شهادة هذا المفكر محمود قاسم لمنهج شريط الفكري الحدائي المستمد من ثقافته الموسوعية وهويته الجزائرية الأصيلة ، الذي عبّر بصدق عن أهمية هذه المسألة وهو اعتراف ضمني بأهمية الرجل في تأسيس هذه الثورة الفكرية تجاه مجتمعه ، لأن الإنسان مدعو للتحرر من الأفكار الوهمية الخيالية التي لا تتطابق وواقعنا كأفراد وكمجتمعات داخل معادلة التنمية وفق فلسفة واعية بأهداف المجتمع المستقبلية ، وهذا ما عملت فلسفة شريط الحدائية على تحقيقه على مستويات عدة على المستوى المفاهيمي أو العملي الميداني. وخوض معركة حقيقية لتصحيح المفاهيم وفرزها من الركام الفكري الذي سيطر على الأذهان ، ولذلك يقول محمد أركون: " إن عملية تدبير مشروعية استخدام المفاهيم والمصطلحات ، قبل حق امتلاكها وتشغيلها هو أمر ضروري لا بد منه ، وذلك لأن قيمة أي فكر تُثَمَّن بالقياس إلى المفاهيم والمصطلحات التي يخلقها" ¹².

فالمجتمع الجزائري عرف هذه الثورة الجذرية في مختلف المجالات منها الثقافية والاقتصادية والاجتماعية ، ومنها الانتقال من دائرة التقليد إلى دائرة البناء والتجديد ، قصد تكييف هذه المفاهيم مع الأوضاع التي يعيشها المجتمع الجزائري بعد الاستقلال ، "فإن الشعب المقتدر ليس هو الذي يقوم بثورة رائعة فحسب ، بل يجب عليه أن يحافظ على قيمها ويعرف كيف يستفيد من تضحياته فيها" ¹³ ، ورغم أن المجتمع الجزائري ورث إرثا استعماريًا ثقيلا عطلّ مشروعه الحدائي وجعله يعيش هذه التبعية الثقافية والاقتصادية ، رغم توفر الكفاءات والنخبة المثقفة في ذلك الوقت ، فقد عبّر عن ذلك (محمود قاسم) : "إن معركة المفاهيم بالجزائر بلغت الذروة في حداثتها ، ولن تجد جزائريا يحدثك قليلا من الوقت حتى ينقلك معه إلى صميم المعركة ، ونحن نرحب دائما أن نصطلي بنيران المعركة ، بدلا من أن نفر منها ذلك أن عصر الهروب من المشكلات قد غبر" ¹⁴.

ما يمكن استخلاصه من هذا القول، هو أن معركة المفاهيم قد شكّلت بدورها مسألة جوهرية ودافعا قويا لإثبات فكرة التخلص والشعور بالنقص تجاه الحضارة الغربية الأوروبية، "وكما ينبنى التصور العربي الإسلامي ل"الآخر" على مجرد الاختلاف والمغايرة، وليس على السلب والنفي، تنبني العلاقات في الإسلام مع الأغيار والمخالفين على التسامح، وليس على التعصب. فالمسلم مأمور أن يجادل المخالفين له في الدين "بالتي هي أحسن". والصّفح، الذي معناه التسامح في أسمى معانيه، مقولة أساسية في الخطاب القرآني. وقد وجد هذا النوع من التسامح وعدم التعصب العرقي أو الديني سبيله إلى سلوك العرب والمسلمين إزاء الآخرين، قديما وحديثا¹⁵. لأن المسلم قد تميز بالتسامح الفكري والتعايش مع الغير وعدم التعصب الديني وهذا ما تحلى به أسلافنا في المجتمع الإسلامي قديما أو حاضرا، "أما في المدن الأوروبية فيحدث اليوم شيء آخر تماما. وفي عهد الاستعمار لم يحدث حتى في أقصى أوقات حرب فرنسا ضد جزائر الثورة، مثلا، أن قام الوطنيون بإحراق منازل الأوروبيين على سكانها، لا في وهران ولا في الجزائر العاصمة، ولا في أي مكان آخر، وبالعكس من ذلك ما يحدث اليوم في ألمانيا حيث تشعل النار في منازل الأتراك على من فيها من الرجال والنساء والأطفال بدافع التعصب العرقي. ومع أن الهجرة كانت أيام الاستعمار من أوروبا المركز إلى الأطراف¹⁶.

وكان اتجاه الجزائر نحو العمل والبناء والتعمير خطوة نحو الحداثة بدل الاكتفاء بالتنظير فقط، أي الانتقال من النظر إلى العمل، وهنا يقترب شريط من الفكرة التي قدمها الفيلسوف الألماني هيجل (1770/1831م)، أن العمل الفكري أي التصور هو بداية العمل الحقيقي، وهنا يظهر مشروع شريط التنموي القائم على التطابق بين ما هو فكري (عقلي) وما هو عملي (واقعي)، حيث يقول هيجل: "لا نستطيع أن نبني بيتا من الحجر إلا إذا سبقه بيت في أفكارنا مصنوع من التصورات"¹⁷. فقد نشغل ببناء البيت من الأحجار ونحن لا نملك من الأفكار اللازمة لذلك.

لكن إذا حاولنا التعمق في أفكار شريط الحدائية حول طبيعة هذه المفاهيم، فإنه لا يركز كثيرا على الناحية المعرفية أو اللغوية فقط، وإنما يبحث في مجالات استخدام هذا اللفظ، "وهذا ما يوضح لنا تأثير شريط بالإيديولوجية الاشتراكية التي تشبع بها وحاول تطبيقها في الجزائر"¹⁸، وبذلك يكون أحد المنظرين لها في العصر الحديث أي إيجاد المنهج الإيديولوجي

الذي ينسجم والمجتمع الجزائري ، والتي سادت العالم في الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين ، لأن تشكيل إيديولوجية قادرة على توجيه المجتمع لا يتأتى صدفة ، بل يقتضي الربط المحكم بين ما هو نظري وتطبيقي ، " فينبغي الاهتمام بتكوين الإنسان وعدم كنز الثروة في البنوك ، لتكون ذريعة لاستعبادنا وامتصاص إمكانياتنا"¹⁹. فقد كان المنهج الحوارى السقراطي حاضرا في فلسفة شريط أو في تحليله لمعركة المفاهيم في الجزائر ، خصوصا عندما ظهر شريط بخطاب فلسفي متميز وابتعد عن المناقشات الصورية ، بل حاول تفعيلها في الواقع الجزائري كمسألة الثقافة والتربية والإيديولوجيا والتنمية لبناء مجتمع حديث متطور لا مغلق متحجر.

ويمكن لنا أن نتوقف قليلا ، عند مسألة الثقافة التي تعتبر إحدى المكونات الرئيسية لهوية الشعب الجزائري ، لأنه كان قريبا من شعبه بحكم الوظائف التي مارسها ، لأن الكتاب والصحيفة من الوسائل التي تساهم في معالجة هذه المفاهيم وإعطائها المعاني الصحيحة ، والتي تتماشى مع تقدم هذا الشعب وطموحه الحضاري ، لأن الأخطاء التي أعاقت مشروعا الحضاري ، كانت أولا نتيجة لعدم ضبط هذه المفاهيم ووضعها في سياقها الصحيح ، وثانيا التسرع في استخدامها دون وعي وتحديد لأهدافها ، مما جعل شريط يكرّس جهده في توظيف هذه المفاهيم على المستوى النظري أو العملي على حد سواء ، لاحظ أن هناك هوة شاسعة بين أفكارنا وأعمالنا ، وهذا راجع لغياب قواعد الانضباط الإيديولوجي.

3/ الحداثة والثقافة التربوية في فكر عبد الله شريط

إن قيام النهضة الحداثيّة يتوقف على وجود ثقافة اجتماعية نابعة من خصوصيات هذا المجتمع أو ذاك ، التي تكمن في المنتج الإنساني المتنوع والمتعدد القيم والأعراف والقوانين التي تحكم وتنظم الحياة الاجتماعية ، أو ذلك الكل المركب الذي يشمل الجوانب المعنوية والمادية ، فما يهمنا نحن ليس عرض هذه المفاهيم بل محاولة إيضاح العلاقة بين الثقافة والتربية ، فالعقل كوسيلة معرفية ومنتج لها في آن واحد لا يمكنه أن يستقل عن الثقافة التي تشكل مركز تفكيره ، لأنها ثمرة تفاعل هذه الرؤية مع الواقع الاجتماعي ، لذا يقول المفكر الجزائري مالك بن نبي (1973/1905م) في هذا الصدد: "فمفهوم ثقافة ثمرة من ثمار عصر النهضة ، عندما شهدت أوروبا في القرن السادس عشر مجموعة من الأعمال الأدبية الجليلة في الفن والأدب والفكر"²⁰. فإن اهتمام شريط بمشكلة الثقافة التربوية كان جليا في

إسهاماته الفكرية وبالأخص الفكر التربوي الذي يعد من المكونات الأساسية لثقافتنا الوطنية. باختلافها يجعلها عاجزة عن كل توصيف موحّد يقول الجابري: "فعندما نتحدث عن ثقافة إنسانية فنحن، في الحقيقة، نستعمل ألفاظا بكثير من التجاوز. لأن الثقافة هي ثقافة قوم، ثقافة أمة، بل وثقافة قبيلة أحيانا. الثقافة جزء من كيان اجتماعي، أما الحديث عن ثقافة إنسانية هكذا، فغير ممكن إلا بتحديدات معينة، عندما يتعلق بشاعر أو نبي أو فيلسوف كبير يطرح مشاكل تهتم الإنسانية ككل"²¹.

إن مفهوم كل ثورة ثقافية لا ينطوي بالضرورة على المواجهات العنيفة واستخدام أسلحة متنوعة كحركات التحرر التي عرفتها الشعوب في التخلص من قبضة المستعمر الظالم، لأنها تستهدف الأفكار لا الأشياء والمواد، وتأثيرها لا يكون مباشرا بل يتم على مستوى الضمير الجمعي بتعبير اميل دوركايم (1858/1917م)، فالثورة الثقافية هي عمل انقلابي يهدف إلى إحداث بعض التغيير في البنية الثقافية المجتمعية الذي يساعد على التحرر وبناء واقع ثقافي أفضل وتحقيق التنمية الشاملة في مختلف المجالات الاقتصادية والثقافية. ولذلك يقول شريط: "إن الثورة الثقافية لدقتها، تعد أخطر الثورات جميعا وأقربها إلى الانزلاق نحو الانحراف. ولذلك كان المجهود الإيديولوجي في الثورة الثقافية أهم من مجالات البناء السياسي"²².

وإذا كان كل مجتمع يعمل جاهدا وراء التغيير والتجديد والارتقاء بمشروعه التربوي وتهذيبه لتحقيق الأهداف المرسومة لتنشئة وتربية الأجيال على مر العصور والأزمان، "فنحن قد شرعنا في بناء نهضتنا منذ خمسين عاما، ذلك هو مكاننا أي تلك هي اللحظة الحاطفة التي تسجل نهاية الظلام في ضميرنا، وديب الحياة في ذلك الضمير، فهي اللحظة الفارقة بين عهد الفوضى الجامدة، والجمود الفوضوي، وعدم التنظيم والتركيب والتوجيه"²³. فيقتضي منا تكييفها وفق الثقافة الوطنية السائدة التي تترجم واقعنا المعاش وتتماشى ونهضة المجتمع الجزائري.

ولكي نكون منهجين وأكثر واقعية وبعيدين عن الأطروحات النظرية المجردة التي تكتفي أحيانا بتصورات فلسفية مثالية يتعذر أحيانا تطبيقها على الواقع الاجتماعي الذي نعيشه. لكن في المقابل ينبغي الإشارة أن المجتمع الجزائري قد عرف ثورة مسلحة قبل الاستقلال، دفع فيها الثمن باهظا للتحرر من الهيمنة والاستبداد الذي فرضه الاستعمار الفرنسي لتحطيم معنويات ومكاسب هذا الشعب، عندما لجأ إلى استخدام كل الوسائل والإجراءات اللازمة

بطرق مُروعة فمن التقتيل الجماعي للأفراد، إلى النهب وسلب الأراضي وتدنيس المقدسات، ساعيا القضاء على قيمه وأخلاقياته ومقومات شخصيته الوطنية كمحاربة الدين واللغة، لأن اللغة تمثل روح الأمة وقلبها النابض، باعتبارها أداة تواصل وتفكير، وتحمل في طياتها ماضي وحاضر الأمة، "لأن اعتماد فلسفة تربوية ناجحة يخضع لقوالب تربوية ثرية، وكذا الدين الذي يشكل العقيدة والشعائر التعبدية لوحدة الأمة وازدهارها"²⁴. لذا حرص الشعب الجزائري على المحافظة على مقدساته الدينية بعد أن حاول المستعمر الفرنسي تدنيسها كتحويل المساجد إلى كنائس وفرض رقابته الصارمة على الحياة الدينية، "ولقد رأينا ومازلنا نرى في الجزائر، أن المسلم - حتى في مرحلة ما بعد الموحدين - لا يطبق المساس بدينه، فهو يصد عن المساجد والمدارس التي سيطر عليها الاستعمار بواسطة عملائه، ليرفع بنفسه مساجد جديدة يعبد الله فيها دون قيود"²⁵، فاستقصاء حقيقة هذه الثقافة التربوية في بلادنا يفسح لنا المجال لمعرفة مشروعا التربوي لإنشاء جيل قوي مبدع، لأن الإسلام يشجع على وجود المسلم القوي لا الضعيف المتخاذل الذي يتقاعس في أداء واجباته تجاه أمته، وقد عبّر المفكر الإسلامي (محمد الغزالي) عن أهمية العلم والعقل في نهضة الأمم والشعوب والنهوض بالإنسان كمشروع تنموي حداثي، الذي يُعد خطوة نحو التحضر والارتقاء في قوله: "طبيعة الإسلام تفرض على الأمة التي تعتنقه أن تكون أمة متعلمة ترتفع فيها نسبة المثقفين وتهبط فيها نسبة الجاهلين"²⁶.

لذا نلاحظ أن المثقف العربي يعاني الضعف والإقصاء في مجتمعاتنا العربية، حيث لم يتوفر بعد الفضاء الفكري المنفتح الذي يشجع على الإبداع وخوض معركة التحديث والتجديد، "ولنما سوف نحاول أن نعرف فيما إذا كانت التحديات الجديدة، التي تواجه المجتمعات العربية والإسلامية المعاصرة، قد لقيت جوابا مناسباً أو تم تجاهلها أو فهمت بشكل سيء من قبل من ندعوهم اليوم، بحق أو بدون حق بالمثقفين"²⁷.

لأننا نسمع اليوم في عالمنا المعاصر أن الاستثمار الحقيقي يكون في الإنسان لا الأشياء المادية، "إن الإنسان هو الكائن الذي ينتج الحضارة بالتغيير والحركة، ولا يغير الإنسان التاريخ إلا إذا غير نفسه، بينما بقية العناصر لا تغير نفسها تغيرا إراديا، والإنسان لا يغير نفسه إلا إذا غير فكره، فالتغيير يجب أن يكون داخليا قبل أن يكون خارجيا، وأن يكون جزئيا قبل أن يكون كليا، وأن يكون فرديا قبل أن يكون جماعيا، فلا نغير الآخرين قبل أن

نغير أنفسنا" ²⁸، فالنهضة التربوية لا تكمن في حشو العقول ببرامج ومناهج عقيمة قد لا تتلاءم وواقعنا كأفراد ومجتمعات، بل يتحقق ذلك وفق فلسفة تربوية علمية لا نظرية مجردة، "إن نشر الأفكار الحية في ديننا وتحريرها من الأفكار المتخلفة التي تكسدت عليها والتي حاربها الفطاحل من جمعية العلماء...هي الكفيلة بأن تعطي للجزائر طابعا ثوريا في الفكر الديني للعالم الإسلامي، كما أعطت هذا الطابع للعالم الثالث في النهوض الصناعي السريع والاقتصاد المستقل، وكما أعطت نفس الطابع للشعوب المناضلة في العالم من أجل الحرية وتقرير المصير وعدم الانحياز الحقيقي" ²⁹.

4/ عبد الله شريط ومسألة التربية في بناء الإنسان

إن مسألة الاهتمام بالمتقف المبدع الذي يعتبر عنصرا فعّالا داخل التركيبة الاجتماعية لشعب معين فاحتقاره يعني احتقار شعب برمته. وقد حاولنا الوقوف على فلسفة شريط التربوية وإحداث هذه الثورة التغييرية إن صحّ التعبير تجاه رسالة المدرسة والجامعة التي تعتبر من المؤسسات التعليمية المكوّنة للنخبة المثقفة، فالمجتمع الذي يريد الخروج من دائرة الانغلاق الثقافي عليه "الاهتمام بالكتاب". ومنه كرّس شريط جهده في تبيان مواطن القوة والضعف في ثقافتنا الوطنية، وقد كانت من القضايا التحديّة التي جلبت اهتمامه واسترعت فكره، إذ حاول جعلها ثقافة قوية كبقية الثقافات العالمية المنتجة لا المتخلفة المستهلكة للأفكار والمناهج، لكونه لم يكن معزولا عن واقعه الثقافي والتربوي، لذا خصص لها كتابا تحت عنوان "من واقع الثقافة الجزائرية"، حتى أننا نراه في كتابه معركة المفاهيم يقول: «الرجل المثقف الشعبي، هو الذي يسخر ثقافته في خدمة الشعب و لو صدمه» ³⁰. لأن المنظومة التربوية تشكل إحدى اللبّات الأساسية القويمة في نهضة أمة معينة. فالتربية نشاط إنساني رفيع، "أي عملية أو نتائج محاولة مقصودة، لتشكيل الخبرة لتوجيه وضبط التعلم" ³¹. لأن التربية مسألة حضارية جوهرية وليست من المسائل الثانوية العرضية لدورها الفعّال وضرورتها الاجتماعية، لأننا نعمل على ترقية أنفسنا فكريا وعلميا قصد مسايرة ومواكبة مستجدات عصرنا، لأن وظيفة التربية هي بناء الإنسان المفكر المتفائل بمستقبله لا الانطوائي المنغلق على ذاته.

وتهتم الشعوب اليوم بتنشئة أبنائها وتربيتها التربية الصحيحة وكسبها السلوكات الناجحة وغرس قيم الخير والحرية والمساواة، لكن هذا كله لا يكون نافعا وصالحا في المجتمع، إذا لم

تتم متابعته وتقييمه في كل مراحل ونظمه ، لأن الرواسب الفكرية قد تعرقل هذا المشروع وتجعله متخلفا.

ومنه يكون شريط قد مارس النقد الفلسفي تجاه الثقافة التربوية التي كانت سائدة في مجتمعنا ، وهذه سمة بارزة نلمسها في موقف شريط من عدة قضايا شائكة وهامة كالتربية والثقافة والإيديولوجيا والتعريب والسياسة ، لأن توجيه هذا المشروع سينعكس حتما على تحضر المجتمع وازدهاره ، وإذا ما حاولنا التعمق في المآخذ التي لاحظها شريط على الثقافة التربوية الطاغية خصوصا عندما تناول المعتقدات والأفكار والمفاهيم التي ظلت مسيطرة وموجهة للشعب عامة وبالأخص للأجيال الناشئة المتمثلة في الأسرة والمدرسة والجامعة والمسجد ، أي المؤسسات التعليمية التي يملكها المجتمع ، والتي يعتمد عليها في استشراف المستقبل إذ الإنسان يتميز بأبعاد ثلاث : (ماضي ، حاضر ، مستقبل) حسب تعبير الفيلسوف الألماني مارتن هايدغر (1976/1889 م) ، أي البعد الماضي والحاضر في بنا الشخصية الإنسانية التي هي صنعة التاريخ ، "غير نفسك تغير التاريخ"^{2 3} ، لأن الأسرة هي النواة الأولى في المجتمع ولها وظيفة تربوية واجتماعية (حضارية) ، لأنها تؤمن الغذاء والمسكن وتحافظ على استمرار النوع البشري ووحدة وتضامن المجتمع ، وتقدم للأجيال الناشئة القيم الروحية والأخلاقية الفاضلة التي تجعل منها كائنات متحضرة.

وينصح علماء النفس بضرورة الاهتمام والرعاية التربوية ، لأن الإنسان مدين لبيئته أكثر مما هو بن أبويه ، لأنها تكون خامة في المراحل المبكرة وتحتاج إلى صقل وتهذيب ، ومنه لا يمكن التقليل من دور الأسرة في المجال القيمي التربوي.

وقد أكدت الأبحاث العلمية في الحقل التربوي صلاحية هذه الطريقة ، لأن المدرسة ليست جزيرة من المثل معزولة في عالم ميتافيزيقي ، وهي المؤهلة علميا وتربويا على تحقيق ذلك ، لتجعل من الطفل مواطنا صالحا فعّالا في محيطه الاجتماعي وتجعله يشعر بمسؤوليته تجاه ذاته وغيره ، حيث لا يمكن لأي مجتمع أن يوظف ويبلغ رسالته التربوية إلا عبر المؤسسات التعليمية وخصوصا المدرسة ، ومنه تحرص المجتمعات المعاصرة على تعليم أبنائها باستخدام مختلف الوسائل التعليمية وأرقى المناهج.

وهذه المهمة لا يمكن تحقيقها إلا وفق توجيه ووعي اجتماعي ، فالجسم لا يعطي ثماره دون توجيه عقلي تربوي. وهذا الموقف قد تبناه الفيلسوف الأمريكي جون ديوي

(1952/1859م) الذي يرى "أن المدرسة يجب عليها أن تستحضر المشكلات الاجتماعية عن طريق المواد الدراسية، لأن التربية عنده هي الحياة لا مجرد إعداد لها"^{3 3}. ويعني هذا هو عدم فصل الثقافة عن التربية التي تستمد منها حيويتها وفعاليتها، وقد ورثت الثقافة الجزائرية ركودا وتحجرا قادها لأن تصبح انفعالية لا فعّالة ولم تعد قادرة على مواكبة التغيرات الحاصلة في المجتمع الجزائري، لذلك نجد شريط يقول: "لا يوجد عندنا هذا الصنف من المثقفين القادرين على العمل العقائدي، والذين هم مهندسو البناء الاجتماعي"^{3 4}، لذا لم يقف شريط متفرجا على الواقع الثقافي بل عمل على نقده وتقويمه منطلقا من الرصيد الفكري والديني الذي يملكه المجتمع الجزائري.

فإذا تفحصنا هذه العوائق المتمثلة في العائق الذهني أو "كما يسميه شريط بالمشكلة الذهنية"^{3 5}، لأنها ذات طبيعة ذهنية، وإن كان اليوم المفهوم العلمي المعاصر هو المفهوم الذي يطغى على الثقافة العالمية التي تسعى للتجديد والابتكار أو ما يعرف بثقافة المركز والأطراف والتي تعرف بظاهرة العولمة.

وفي إحدى القنوات الفضائية تحدث صاحب الشريط الوثائقي عن الظاهرة الصينية ومدينة "شينغ شانغ" التي يقطنها أكثر من 32 مليون نسمة، أي تضم أكثر من عدد سكان دولتين عربيتين عندنا، حيث قال عمدة هذه المدينة: "نحن شعب خلقنا لنعمل كبارا وصغارا للتكيف مع متطلبات الحياة"، بخلاف الشعوب الأخرى التي لديها أيام العطل والراحة، معنى هذا أن مثل هذه الشعوب أدركت معنى الحضارة والتطور التكنولوجي والدخول في معترك الحياة.

لأن العيب والتقصير فينا نحن كمثقفين، "فلم يقدم القائمون بالجزء الفكري من هذا البناء نصيبيهم فيه إما لعجز منهم أو لسوء تصرف سياسي باستخدامهم أو لأنه لا يوجد عندنا هذا الصنف من المثقفين القادرين على العمل الثقافي الذين هم مهندسو البناء الاجتماعي"^{3 6}، حيث لم نستوعب وضعنا الحضاري فانقطعنا عن ماضينا وحاضرنا في آن واحد، فلا يمكن لنا أن ننسلخ عن ماضينا الذي يحمل في طياته أصالتنا وهويتنا في عمق التاريخ، ونساير عصر الحداثة دون معرفة نقاط القوة والضعف في معادلة التنمية والتحضر واتخاذ موقف صارم تجاه استشراف المستقبل، لأن التراث هو الركيزة الأساسية في قيام نهضة اجتماعية، "التراث هو كل ما هو حاضر فينا أو معنا من الماضي، سواء ماضينا أم ماضي

غيرنا، سواء القريب منه أم البعيد" ³⁷، وكان العجز والوهن مصيرنا، عجزنا عن تأدية رسالتنا نحو الوطن وتاريخنا وأمتنا "ولكن التراث الثقافي الخطير الذي خلفته الحضارة الإسلامية للحضارة الحديثة، يظل شاهدا على ما كان يتصف به الفكر الإسلامي في عصوره الذهبية، فلقد اتسم كفاحه في مجالاته كافة بالإحساس (بالقانون) وهو يستلزم القدرة على التركيب. فوضعت النظريات القانونية وبنائها الفقهاء على قواعد (الأصول). وهكذا نجد التشريع الإسلامي يحمل للمرة الأولى في تاريخ التشريع طابع نظام فلسفي يقوم على مبادئ أساسية" ³⁸.

وهذه المسألة في غاية الأهمية والخطورة لأن تكوين جيل هزيل من الناحية التربوية لا يحقق طموح الأمة، وهنا تظهر أهمية الثقافة التربوية لأننا في الحقيقة لم نهئ البيئة التي تمكننا من ضمان نجاح هذه العملية التربوية، فلا الوسط العائلي أو الاجتماعي أو حتى الدراسي يساعد على تحقيق هذه التنمية، فغياب فلسفة تربوية في تنظيم الواقع وتوجيهه قد لا يخدم المجتمع حتما، مما يفرض وجود فلسفة تعليمية تقود العملية التربوية وترشدها وتتجاوب مع التغيرات الحاصلة في المجتمع، وتكون قائمة على فروض أساسية تساعد على تنظيم الفكر التربوي و تعبئة إمكانياته، وتتخذ من المنهج العلمي أسلوبا في دراسة وتحليل المشكلات التربوية، "فالتربية التي تعين الأفراد على بلوغ حياة متمدنة، ينبغي لها أن تهئ للإنسان الفرصة كي ينمي القدرات الكامنة فيه، مما يسهل اتصاله ببيئته ويكون فعّالا لا منفعلا" ³⁹، وهذا يتطلب فلسفة ناضجة و متقدمة لا تعرف الاستسلام بل تحاول النقد. "فالفلسفة تقوم بدور ذي ثلاث شعب: أما الشعبة الأولى فهي العملية النقدية. أما الشعبة الثانية فحص وتوضيح العلاقات المختلفة التي توجد بين العلوم. أما الشعبة الثالثة فتكمن في الجانب التأملي، وهذا ما نلمسه في الفلسفة القديمة التأملية" ⁴⁰.

5/ المنهج الإصلاحي في فلسفة شريط الحداثية

قد حاول شريط إبراز موقف العلامة عبد الحميد بن باديس (1889/1940م) رائد النهضة الجزائرية والمؤسس لجمعية العلماء المسلمين، الذي عُرف بمنهجه الإصلاحي ورفضه للظلم والاستبداد الذي تعرض له الشعب الجزائري من طرف الاستعمار الفرنسي، "وأذكر أيضا كلمة من الشيخ العربي التبسي وهو يؤينه قائلا: "أيتها الأمة الجزائرية: لقد كان الشيخ ابن باديس هو الجزائر، فلتجتهد الجزائر الآن أن تكون هي الشيخ ابن باديس"، ⁴¹، وقد

عكف على تعليم الدين واللغة العربية وقال مقولته الشهيرة: (لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح بها أولها)، "وهذا الخط الإصلاحي ذاته أدخله إلى الجزائر (ابن باديس)، وقد نهض بدور كبير في "الشهاب"، و(البشير الإبراهيمي)، وكان من أكبر العاملين في "البصائر"، "4 2". فنهضة أمة أو تخلفها عن عصرها لا يكون بلغة أو ثقافة أجنبية وهذا يتطلب بذل مجهود أكثر، لأن الأزمة التي جعلت هذه الأمة تعيش هذا الاستلاب والاعتراب الثقافي والاقتصادي، هو نتيجة لجملة من العوامل التي أوقعتنا في فخ التبعية والتراجع عن البناء والنهضة، لكن العائق ليس ذهنيا فقط بل يعود إلى التقصير والتفريط في تهذيب لغتنا وتطويرها باعتبارها أداة لتنمية ثقافتنا.

وقد عبر المفكر العربي المعاصر عثمان أمين عن ذلك في مفهومه أن "اللغة ظاهرة اجتماعية"، ففي رأي شريط أن غياب الوعي بأهمية اللغة والنهوض بها في مصاف اللغات الحية قد يجعلها خاوية وميتة وقد عمل الاستعمار الفرنسي على محاربة اللغة لأنها تمثل تراث ومقومات وجودها، وأيضا لا تكمن أهميتها في عملية التبليغ أي الإفصاح عن الأفكار والمعاني التي تملكها فحسب بل في اكتساب القدرة على التفكير، "لأن تطور العلوم يتطلب تطور اللغة، وتطور اللغة لا ينفصل عن قواعدها، كما أن اللغة وتطورها لا ينفصل عن تطور العلوم الأخرى، فكذلك العلوم وتطورها لا ينفصل عن الحضارة وتطورها" 4 3.

هذا يقودنا إلى فكرة هامة وهو عدم فصل اللغة عن العلوم الأخرى، لأن اللغة الانجليزية مثلا أصبحت لغة تكنولوجيا وتطور علمي واقتصادي، فذلك يرجع بالخصوص إلى المصطلحات والكلمات المكوّنة لها، لأنها واكبت التطور الفكري والعلمي في مجتمعات متحضرة وسهلت التواصل بين الإنسان وأخيه الإنسان، ونلاحظ اليوم مدى التسابق بين اللغات الحية للالتحاق بالركب الحضاري، كاللغة اليابانية أو الصينية اللتين أصبحتا من اللغات الناهضة في العالم، رغم طبيعتهما المعقدة من جهة التعبير أو التركيب، جعلت الياباني أو الصيني يتشبث بلغته ويعبر بها في مختلف المجالات الفكرية والعلمية.

وإذا كان في مجتمعنا اليوم قد انقسم المثقفون فيه إلى فئتين مختلفتين، دعاة التعريب ودعاة التغريب، وكل منهم يرفض لغة الآخر لخنق اللغة العربية وقتلها والانهيار بلغة الأجنبي. وهنا يقع اللوم على مناهجنا التربوية التي تتميز بالضعف والجمود في نقل اللغة وتعليمها للأجيال إذا ما قورنت ببقية اللغات الأخرى، حتى أصبحنا نرى أبناءنا يميلون أكثر إلي

اللغات الأجنبية، بينما ظلت اللغة العربية محاصرة من الأقلية الفرنسية، لكنك لا تسمع عن الفرنسي أنه عبّر باللغة العربية، لأنه يدرك أن مسألة اللغة ليست ظاهرة فردية بل جماعية، وهي القلب النابض للأمة التي ترمز لأصالتها وهويته الثقافية الوطنية.

فوظيفة البحث التربوي إذن هي الكشف عن المبادئ التي تنظم الظواهر النفسية والاجتماعية، معنى هذا أن المفكر شريط كان واثقا وصادقا في إصدار هذه الأحكام النقدية، التي تتميز بالواقعية والاطلاع على الواقع التربوي في بلادنا، حيث لا يمكن أن ننجح في استيراد هذه المناهج وتطبيقها على واقعنا التربوي، فلكل مجتمع الحرية في رسم منهجية معينة تستجيب لتطلعات أبنائه، "لأن البحث التربوي: هو عبارة عن تطبيق الطريقة العلمية تطبيقا منظما ومدرسا، من أجل الوصول إلى حل لمشكلاتنا التربوية...أو هو طائفة من القواعد العامة التي تصاغ بطريقة تؤدي بالوصول إلى الحقيقة، وتتصف بالتنظيم وال ضبط والموضوعية"^{4 4}، فإهمال تعليم اللغة العربية سيبتج عنه حتما نوع من اللامبالاة والتساهل اللذين ظلا مسيطرين على الشخصية الجزائرية.

وقد ذكرنا آنفا أن وجود تنظيم تربوي هادف وموضوعي تترتب عنه جملة من الأهداف القريبة والبعيدة، التي تعكس مدى خصوبة هذه السياسة التربوية، فالجزائر قد شهدت نظاما تربويا أثناء فترة الاستعمار كان في جوهره بعيدا عن روح الأمة، و يمكن لنا أن نستقرئ التاريخ الفلسفي لتفحص المناهج التربوية فقد كان سقراط مثلا يعتمد الطريقة الحوارية وفن توليد الأفكار من محاوريه، وكذا تلميذه أفلاطون الذي تظهر معظم آرائه في التربية في كتابيه (الجمهورية والقوانين)، "حين رأى أن الحصول على المعرفة يؤدي بالضرورة إلى النتائج الأخلاقية الطيبة، وأن الجهل هو شر الأمراض، وكان يهدف بمقترحاته إلى إصلاح الحياة والمجتمع الأثيني وتربية المواطنين تربية صالحة أولى باهتمام رجال السياسة، فالفضيلة هي ثمرة العقل، وحتى تلميذه أرسطو ربط التربية بالسياسة، وأنها خدمة ضرورية لبناء مجتمع متماسك والروح المعنوية العامة، وإن هدف التربية هو هدف الدولة والحياة الإنسانية بوجه عام"^{4 5}.

وإذا انتقلنا إلى الحضارة الإسلامية مثلا فالعقلانية الإسلامية تناولت إشكالية التربية بالتنظير والتطبيق، وخصوصا عند فلاسفة الإسلام ونذكر هنا الفيلسوف أبي حامد الغزالي وابن خلدون فقد كانت لهما نظرية علمية تدل على مدى أهمية التربية في تحديث المجتمع

وازدهاره وثقافته في طلب المعرفة (أي تحصيل العلم) عندما أسس لفلسفة واضحة تتعلق بالموضوع. أما الفيلسوف الإسلامي أبي حامد الغزالي (505/450 هـ) الذي يلقب بحجة الإسلام الذي عرف عنه (طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا لله)، حيث يقول: "وقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبي وديدي من أول أمري وريعان عمري غريزة وفطرة من الله وضعتا في جبلي لا باختيار وحيلتي" ^{4 6}، فلم يحاول فقط البحث في الفضائل المطلقة ولا اهتم بتحليلها من حيث هي مبادئ، وإنما مال إلى بحثها من الناحية العملية التطبيقية من جهة ارتباطها بالتعليم الديني، لقد اهتم بتحديد واجبات المرء نحو نفسه وقريبه ووالديه وإخوانه في الدين.

وقد عمل على تحليلها تحليلًا نفسيًا موضوعيًا، حيث جمع بين العقل والشرع، ويمكن أن نستكشف هذا المنهج في مؤلفاته، حيث يقول: "أيها الولد لا تكن من الأعمال مفلسًا ولا من الأحوال خاليًا... فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً" ^{4 7}. معنى ذلك أن الغزالي يرشد الأبناء نحو العلم الصحيح والالتزام بشرع الله، لا الطيش وراء المسائل العرضية، لأنه ثار على العلوم والمعارف التي تبعدنا عن شرع الله وعقيدته، ويوصي كذلك بالتربية الصحيحة ويقول: "أيها الولد كم من ليالٍ أحييتها بتكرار العلم، ومطالعة الكتب، وحرمت على نفسك النوم... ينبغي لك أن يكون عملك وفعلك موافقاً للشرع" ^{4 8}.

ومنه يكون الغزالي قد أشار إلى فكرة هامة في مجال التربية، التي تعدّ بمثابة القوة والدفعه الوجدانية في الاستفادة من الملكات والمهارات التي يملكها الطفل، وتدريب النفس على العمل في مرضاة الخالق، فقد رسم الإطار الصحيح الذي ينبغي إتباعه في التربية المقيدة بتعاليم الدين الإسلامي.

وأما الفيلسوف ابن خلدون (1332/1406م) المؤسس لعلم التاريخ وعلم الاجتماع فنجد منهجه واضحاً كذلك في فلسفة التربية، يرى أن نشأة العلوم وتقدمها ظاهرة مهمة في العمران البشري، فالإنسان مفطور على طلب العلم، الذي يعد حسب ابن خلدون ظاهرة حتمية وليدة تكوين المجتمعات وتطورها في سلم الحضارة (فالعلم نتيجة اختلاج الفكر). ومنه تظهر قيمة التعليم وضرورته في المجتمع، أو (ما يسمى بحب المعرفة)، فابن خلدون كان واقعياً في أطروحاته الفلسفية والمعرفية وحتى التربوية.

فقد بات لزاما علينا اليوم أن نكتشف هذه الموضوعية والابتعاد عن الذاتية في طرح مثل هذه المشكلات ذات البعد الحدائي، لكن لا يسعنا في هذا المجال إلا أن نؤكد على نقطة هامة قد تفيدنا في مناقشة مسألة الثقافة التربوية وعلاقة اللغة بالتربية، كون ابن خلدون لم يكن كسابقيه مقلدا بل مبدعا، وقد أظهر هذه الواقعية في علم التاريخ وعلم الاجتماع وفي مجال التربية والتعليم.

فالتربية أو المعرفة أسمى من الميول والرغبات لإعداد جيل متفائل قادر على خوض معركة البناء، والعمل لا الركون إلى أفكار وهمية خيالية، لذا يرى الأمريكي جون ديوي " أن النظر إلى التعليم لا على أساس كونه مجرد إعداد للنضوج، بل نمو ونهوض مستمر للعقل، وتنوير مستمر للعقل، إذ المدارس لا تقدم لنا سوى وسائل النمو العقلي، والبقية تعتمد على مدى استيعابنا وتفسيرنا لتجاربنا، والتعليم الحقيقي يأتي بعد تخرجنا من المدارس ويجب أن يستمر معنا طيلة حياتنا⁴⁹ ". وإذا أردنا التعليق على ذلك فإن جون ديوي لا يختلف عن سابقيه، في إرساء هذه النتيجة كون الغايات تحدد الوسائل بالضرورة، لأن وظيفة التعليم كامنة في تنمية العقل، وتهذيب المهارات والاستفادة من الخبرات والتجارب التي نقوم بها في حياتنا العملية، لأن الحياة عمل وممارسة.

خاتمة:

والحق أن المفكر عبد الله شريط لم يكن مفكرا فيلسوفا فحسب بل كان مصلحا اجتماعيا، ويعتبر نفسه سليلا لابن باديس ومكملا لمشروعه الفكري الإصلاحية، لذا يعتبر الفلاسفة في الجزائر ما تزال في مرحلة الطفولة، وقد تعلق به طلاب العلم وأحبوه، ومنه حاول تأسيس عقلانية حدائية وتنويرية وفق منهجية علمية نابعة من مقومات الثقافة الوطنية الجزائرية الخصبة التي تجمع بين الماضي البعيد والحاضر القريب. ولكن ألا يمكن اعتبار عبد الله شريط نموذجا بارعا هو الآخر للحركة الحدائية التنويرية، لأنه كان متأثرا بمعاصريه وسليل الفكر الحدائي، الذي تجلّى في كتابات بعض المفكرين العرب المعاصرين كمالك بن نبي وأركون والجابري وحسن حنفي وزكي نجيب محمود وغيرهم كثير، وهو الأساس الذي جعل من العقل سيّدا والحرية جوهرها ملازما له، فقد حارب التقليد والاستسلام واجتار الماضي والانغلاق الثقافي والتصلب الفكري ورفض دوغمائية العقل.

لذا يُعد شريط صاحب نظرية فلسفية حدائية جديدة بأن تدرس وتعلّم للأجيال الناشئة، ومن رواد الفكر الجزائري المعاصر والأساتذة الجزائريين الذين درّسوا الفلسفة، وهذه ومضة فقط من عشرات الشعل الفلسفية التي أوقدها مفكرو النهضة الواعدة، فبدون هذه الآليات لن تكون فلسفة في بلادنا، فما أصابنا من تخلف وروح انهزامية، جعلنا نشعر بالدونية تجاه الغير رغم ما نملكه من طاقات بشرية هائلة وثروات مادية باطنية، لأن المعركة التي خاضها المجتمع أثناء معركة التحرير ولدت فيه انفعالات وشحنة قوية، دفعت به إلى حمل سلاح معركة البناء والنهضة الحضارية، وذلك وفق مدرسة فلسفية جزائرية تجيب على التساؤلات المطروحة في مجالات حيوية عدة، وتفرض تحكيم العقل وإخضاع الواقع للنقد والانتقاء، لأن أهمية التفلسف عند شريط تكمن في تغيير المشهد الاجتماعي، انطلاقاً من خصوصية ثقافية إسلامية، فمكانة الرجل تجاوزت حدود وطنه، وقد عُرف في المشرق بالمتقف البار، فلا يمكن أن تكون فلسفة ناجحة تظل قابعة في مخازن التبريد.

لقد كان داعياً ومدافعاً عن حرية التفكير والتخلص من كافة أشكال العنف والاستبداد، غير أن مفهومه للحدائنة والتنوير يعد خطوة خلاقة نحو الفضيلة والإجابة عن الكثير من القضايا التي بقيت عالقة كمسألة المفاهيم والثقافة والتربية.

و عليه يكون شريط نموذجاً في التواضع والسماحة الفكرية، وسعة الأفق التي لازمتها طيلة مشواره الفكري ومشروعه الحدائني، لأن التفلسف والحيرة الفكرية ظلت تدفعه إلى رفض التعصب والتزمت الفكري، فقد تمسك بوطنية عميقة تستهين بكل صعب في سبيل حرية الجزائر، وروح دينية قوية تأمل عزّ الإسلام وعقلية متفتحة على الذات والغير.

الهوامش:

- 1- زكي نجيب محمود، حياة الفكر في العالم الجديد، دار الشروق، ط2، 1982، ص 115.
- 2- إيمانويل كانط، جواب عن السؤال ما الأنوار؟ دقاتر فلسفية الحدائنة، ترجمة محمد سيلا و عبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال للنشر الدار البيضاء 05، المغرب، ص44.
- 3- محمد عابد الجابري، التراث والحدائنة، دراسات ومناقشات، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، 1991، ص 15 - 16.
- 4 - أدونيس، الثابت والمتحوّل بحث في الإتياع والإبداع عند العرب، 3- صدمة الحدائنة، دار العودة بيروت، ط1، 1978، ص 260.

- 5 - إبراهيم أعراب، الإسلام السياسي والحدائق، أفريقيا الشرق، المغرب، (د.ط)، 2000، ص 192.
- 6 - منصور عفيف، الحوار الفكري، مجلة تصدر دوريا عن مخبر الدراسات التاريخية و الفلسفية جامعة منتوري قسنطينة، العدد 9، جوان 2007، ص 77 - 78.
- 7 - أميرة حلمي مطر، محاوره فايدروس لأفلاطون أو عن الجمال، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2000، ص 3 - 4.
- 8 - أحمد أمين، زكي نجيب محمود، السلسلة الفلسفية، قصة الفلسفة اليونانية، مطبعة دار الكتب المصرية القاهرة، ط 2، 1935، ص 107.
- 9 - موسى معيرش، مقال حول المفاهيم في فلسفة عبد الله شريط، عن أعمال الدكتور شريط في ميزان الباحثين الجامعيين، ص 131 - 132.
- 10 - عبد الله شريط، معركة المفاهيم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط 2، 1981، ص 111.
- 11 - محمود قاسم، مقدمة لكتاب معركة المفاهيم لعبد الله شريط، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ص 5.
- 12 - محمد أركون، الفكر الإسلامي قراءة علمية، ترجمة هاشم صالح، مركز الإنماء القومي، بيروت، والمركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط 2، 1996، ص 144.
- 13 - عبد الله شريط، معركة المفاهيم، مصدر سابق، ص 09.
- 14 - محمود قاسم، مقدمة لكتاب معركة المفاهيم لعبد الله شريط، مصدر سابق، ص 7.
- 15 - محمد عابد الجابري، قضايا الفكر العربي (3) مسألة الهوية العروبة والإسلام... والغرب، مركز الوحدة العربية، بيروت، ط 4، سبتمبر 2012، ص 195.
- 16 - محمد عابد الجابري، قضايا الفكر العربي (3) مسألة الهوية العروبة والإسلام... والغرب، مرجع سابق، ص 195 - 196.
- 17 - عبد الله شريط، معركة المفاهيم، مصدر سابق، ص 02.
- 18 - موسى معيرش، مقال حول المفاهيم في فلسفة عبد الله شريط، عن أعمال شريط، ص 134 - 135.
- 19 - عبد الله شريط، المشكلة الإيديولوجية وقضايا التنمية، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائرية، 1981، ص 105.
- 20 - مالك بن نبي، مشكلات الحضارة، مشكلة الثقافة، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر المعاصر بيروت، دار الفكر بدمشق، ط 4، 1984، ص 25.

- 21- نعيمة حاج عبد الرحمان والأزهري ربحاني، ليس في ثقافتنا مفهوم للآخر، وحوار الثقافات شعار ظرفي، لقاء مع محمد عابد الجابري، آيس فضاء العقل والحرية، مجلة فلسفية نصف سنوية، دار الصحافة القبة الجزائر، العدد 2، السداسي الأول 2007، ص 63 - 64.
- 22- عبد الله شريط، المشكلة الإيديولوجية وقضايا التنمية، مصدر سابق، ص 113.
- 23- مالك بن نبي، مشكلات الحضارة شروط النهضة، تر عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق، 1986، ص 79.
- 24- عبد الحكيم الصايم، مقال نقد الدكتور عبد الله شريط للثقافة التربوية في الجزائر، المدرسة العليا للأساتذة قسنطينة، ص 191.
- 25- مالك بن نبي، مشكلات الحضارة وجهة العالم الإسلامي، تر عبد الصبور شاهين، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، ط 1، 1986، ص 117.
- 26- محمد الغزالي، خلق المسلم، مكتبة رحاب ساحة بور سعيد، الجزائر، ط 15، 1987، ص 213.
- 27- محمد أركون، الفكر الإسلامي نقد واجتهاد، ترجمة وتعليق هاشم صالح، لافوميك المؤسسة الوطنية للكتاب 3 شارع زيغود يوسف الجزائر، ص 3- 4.
- 28- الطيب بن براهيم، مالك بن نبي وابن خلدون، مواقف وأفكار مشتركة، دار مدني، الجزائر، 2002، ص 127.
- 29- عبد الله شريط، الأعمال الكاملة، المجلد الثالث، وزارة الثقافة، منشورات السهل، الجزائر، 2009، ص 403.
- 30- عبد الله شريط، معركة المفاهيم، مصدر سابق، ص 203.
- 31- سعيد إسماعيل علي، المدخل إلى العلوم التربوية، الناشر عالم الكتب، القاهرة، (د.ط.س)، ص 68.
- 32- مالك بن نبي، مشكلات الحضارة شروط النهضة، مرجع سابق، ص 32.
- 33- جون ديوي، التربية في العصر الحديث (الجزء الأول)، ترجمة عبد العزيز عبد المجيد محمد حسين المخزنجي، مكتبة النهضة العربية، القاهرة، 1949 ص 17.
- 34- عبد الله شريط - مع الفكر السياسي الحديث والمجهود الإيديولوجي في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص 177.
- 35- عبد الله شريط، من واقع الثقافة الجزائرية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص 54.
- 36- عبد الله شريط، الأعمال الكاملة، المجلد الأول، منشورات السهل وزارة الثقافة الجزائرية، 2009، ص 269.

- 37 - محمد عابد الجابري، التراث والحداثة، دراسات ومناقشات، مرجع سابق، ص 45.
- 38 - مالك بن نبي، مشكلات الحضارة، وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 18.
- 39 - إيه جوستون، فلسفة وإتهيد في الحضارة، ترجمة الدكتور عبد الرحمان يانحي، المكتبة العصرية صيدا، بيروت، 1965، ص 93.
- 40 - محمد حبيب النجيجي، في الفكر التربوي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ص 749.
- 41 - عبد الله شريط، معركة المفاهيم، مصدر سابق، ص 88.
- 42 - محمد أركون، الفكر العربي، ترجمة عادل العوّا، منشورات عويدات، بيروت - باريس، ط 3، 1985، ص 152.
- 43 - عبد الله شريط من واقع الثقافة الجزائرية، مصدر سابق، ص 20.
- 44 - تركي رابح، مناهج البحث في علوم التربية وعلم النفس، الموسوعة الوطنية للكتاب 3 شارع زيفود يوسف، الجزائر، 1984، ص 16.
- 45 - عبد الحكيم الصايم، مقال نقد الدكتور عبد الله شريط للثقافة التربوية في الجزائر، مرجع سابق، ص 194 - 195.
- 46 - سعيد باسل، منهج البحث عن المعرفة عند الغزالي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، (د.ط.س)، ص 22.
- 47 - يوسف فرحات، كتاب الموسوعة الإسلامية وأعلامها، الناشر ترادكسيم بشركة مساهمة سويسرية جنيف، ط 1، 1986، ص 152.
- 48 - يوسف فرحات كتاب الموسوعة الإسلامية وأعلامها، مرجع سابق، ص 154.
- 49 - ول ديورانت ترجمة الدكتور فتح الله محمد المشعشع، قصة الفلسفة من أفلاطون إلى جون ديوي، منشورات مكتبة المعارف، بيروت، الطبعة المجددة 2004، ص 382.